

تفسير ابن كثير

إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ^ج وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ^ق وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ
وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ

وقوله : (إلا من رحم ربك) أي : إلا المرحومين من أتباع الرسل ، الذين تمسكوا بما
أمروا به من الدين . أخبرتهم به رسل الله إليهم ، ولم يزل ذلك دأبهم ، حتى كان النبي -
صلى الله عليه وسلم - الأمي خاتم الرسل والأنبياء ، فاتبعوه وصدقوه ، ونصروه ووازره ،
فجازوا بسعادة الدنيا والآخرة؛ لأنهم الفرقة الناجية ، كما جاء في الحديث المروي في
المسانيد والسنن ، من طرق يشد بعضها بعضها : " إن اليهود افرقت على إحدى وسبعين
فرقة ، وإن النصارى افرقوا على ثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين
فرقة ، كلها في النار إلا فرقة واحدة " . قالوا : ومن هم يا رسول الله ؟ قال : " ما أنا عليه
وأصحابي " . رواه الحاكم في مستدرکه بهذه الزيادة وقال عطاء : (ولا يزالون مختلفين)
يعني : اليهود والنصارى والمجوس (إلا من رحم ربك) يعني : الحنيفية . وقال قتادة : أهل
رحمة الله أهل الجماعة ، وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم ، وأهل معصيته أهل فرقة ، وإن

اجتمعت ديارهم وأبدانهم .وقوله : (ولذلك خلقهم) قال الحسن البصري في رواية عنه :

وللاختلاف خلقهم .وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : خلقهم فريقين ، كقوله : (فمنهم شقي وسعيد) [هود : 105] .وقيل : للرحمة خلقهم . قال ابن وهب : أخبرني مسلم بن خالد ، عن ابن أبي نجيح ، عن طاوس ; أن رجلين اختصما إليه فأكثر فقال طاوس : اختلفتما فأكثرتما ! فقال أحد الرجلين : لذلك خلقنا . فقال طاوس : كذبت . فقال : أليس الله يقول : (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) قال : لم يخلقهم ليختلفوا ، ولكن خلقهم للجماعة والرحمة . كما قال الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب . وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة . ويرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) [الذاريات : 56] .وقيل : بل المراد : وللرحمة والاختلاف خلقهم ، كما قال الحسن البصري في رواية عنه في قوله : (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) قال : الناس مختلفون على أديان شتى ، (إلا من رحم ربك) فمن رحم ربك غير مختلف . قيل له : فلذلك خلقهم ؟ [قال] خلق هؤلاء لجنته ، وخلق هؤلاء لناره ،

وخلق هؤلاء لرحمته ، وخلق هؤلاء لعذابه . وكذا قال عطاء بن أبي رباح ، والأعمش .
وقال ابن وهب : سألت مالكا عن قوله تعالى : (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك
ولذلك خلقهم) قال : فريق في الجنة وفريق في السعير . وقد اختار هذا القول ابن جرير ،
وأبو عبيدة والفراء . وعن مالك فيما روينا عنه في التفسير : (ولذلك خلقهم) قال :
للرحمة ، وقال قوم : للاختلاف . وقوله : (وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة
والناس أجمعين) يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره ، لعلمه التام وحكمته النافذة ،
أن ممن خلقه من يستحق الجنة ، ومنهم من يستحق النار ، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من
هذين الثقيلين الجن والإنس ، وله الحجة البالغة والحكمة التامة . وفي الصحيحين عن أبي
هريرة ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : " اختصمت الجنة
والنار ، فقالت الجنة : ما لي لا يدخلني إلا ضعفة الناس وسقطهم ؟ وقالت النار : أوثرت
بالمتكبرين والمتجبرين . فقال الله عز وجل للجنة ، أنت رحمتي أرحم بك من أشياء .
وقال للنار : أنت عذابي ، أنتقم بك ممن أشياء ، ولكل واحدة منكما ملؤها . فأما الجنة
فلا يزال فيها فضل ، حتى ينشئ الله لها خلقا يسكن فضل الجنة ، وأما النار فلا تزال تقول

: هل من مزيد؟ حتى يضع عليه رب العزة قدمه ، فتقول : قط قط ، وعزتك " .